

إنفجار المشرق العربي:

من تأميم قناة السويس إلى غزو العراق، ١٩٥٦ - ٢٠٠٦

ترجمه عن الفرنسية محمد علي مقلد؛ حقّقه نسيب عون

(بيروت: دار الفارابي، ٢٠٠٦). ٨٦٣ ص.

عوني فرسخ

باحث عربي - الإمارات العربية المتحدة.

إرادة المقاومة في مصر وفلسطين، والقوات التي قادها الجنرال تومي فرانكس لما تزل عاجزة عن قهر إرادة المقاومة في العراق المحتل.

٣ - يقول (ص ٢٥): «استمر هذا

الشرق خلال أربعة قرون، منذ بداية القرن السادس عشر وحتى بداية القرن العشرين، منهكاً من التاريخ الذي يحمله ومن صدمة الخراب الذي خلفته الغزوات المغولية». ليس ينكر تأثير المغول والتتار، وحملات الإفرنج المسماة تجاوزاً «الحروب الصليبية». غير أن العامل الأشد تأثيراً في تخلف الواقع العربي، إنّما كان خسارة الدور التاريخي في التجارة العالمية بسيطرة الأوروبيين على الملاحة في أعالي البحار وتصفيتهم المراكز التجارية العربية على سواحل الهند وشرق أفريقيا. وبالتالي خسر المجتمع العربي أهم مورد اقتصادي، مما أثر سلباً في بناء الاجتماعية، وتسبب بالتالي في افتقاد القوة الاجتماعية ذات المصلحة في الوحدة القومية لتأمين طرق التجارة، وتنامى التخلف العربي بتفاعل ذلك جدلياً مع تخلف واستبداد المماليك، ثمّ العثمانيين.

يقدم د. قرم قراءة لأحداث المشرق العربي في النصف الثاني للقرن العشرين. وهي وإن كانت غنية بما هو جدير بالتنويه به، لم تخل مما ينبغي التنبيه إليه، مسجلاً حول ذلك الملاحظات التالية:

١ - في تناقض مع عنوان الترجمة العربية للكتاب تكرر في متنه استخدام مصطلح «الشرق الأوسط»، والمؤلف يعلم تماماً أنّه مصطلح يتعاطى مع الوطن العربي في تجاهل متعمّد لهويته القومية. وكان حريراً بكتاب يعتبره مؤلفه مدخلاً نقدياً منهجياً إلى طرائق كتابة تاريخ المنطقة الالتزام بالمصطلح الأصق تعبيراً عن حقائق تاريخها ومعطيات واقعها، ولا يستخدم مصطلحاً استعماري الدوافع والغايات.

٢ - القول (ص ١٥ - ١٦) بتوالي الهزائم العربية منذ حملة نابليون سنة ١٧٩٨، حتّى احتلال العراق سنة ٢٠٠٣، والتقويم الموضوعي للتاريخ العربي الحديث لا يستقيم دون أخذ دور المقاومة الشعبية وإنجازاتها في الحسبان، فنبليون الذي اكتسح أوروبا وأسقط ملوكها لم يستطع قهر

٤ - يقول (ص ٣٠): «كانت انتصارات الإسلام، الدين الكوني الذي نشره العرب في نجاح باهر، السبب الذي يخفي مسالك الفشل المهيم على تاريخهم». فضلاً عن عدم تقديم الدليل على صحة هذا الادعاء، يتجاهل د. قرم عدم تجاوز الفتوحات ثمانين عاماً، وأنه طوال القرون الستة التالية كان الوطن العربي المركز الأول للحضارة الإنسانية. وعلى رغم سقوط سلطة ذوي الأصول العربية وشيوع التشردم السياسي منذ صدر العصر العباسي، لم توهن مقومات الوجود القومي العربي في أي من نواحي الوطن العربي^(١)، فضلاً عن التصدي لغزوات الفرنجة والمغول والتتار. وإذا كان احتفاظ العرب بمقومات وجودهم القومي فاعلة على رغم التشردم السياسي والصراعات السلطوية، ودرهم أشد الغزاة تعصباً وتخلفاً وتدميراً لمعالم الحضارة فشلاً سياسياً، فما هي معايير النجاح، إذن؟

وإن كان المقصود عدم إرساء الإسلام قواعد نظام سياسي، فقول غير تاريخي. فالقرآن الكريم أمر بالشورى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾^(٢). وعليه، فالشورى مفروضة كالصلاة والزكاة. وتجاوزها إنما يعود إلى بداية العهد الأموي. ويومها كان قيصر الروم وكسرى الفرس ونجاشي الحبشة يحكم

مدى الحياة، وصلاحياته مطلقة. وعليه، لم يحدد الصحابة فترة حكم الخليفة أو صلاحياته، وإنما اعتبروا أحكام الشرع هي التي تحددها^(٣).

٥ - يستعرض (ص ٦٣) القوى التي سيطرت على المشرق العربي السابقة للفتح العربي الإسلامي، ويقرّر أنه بتأثير الغزوات المتوالية، والجيولوجيا المركبة للثقافات، لم تبرز هوية ثقافية معترف بها وحدود قومية محترمة. وألاحظ أنه، عدا العرب، لم تنجح أي من تلك الجماعات في إكساب المنطقة هويتها القومية، أو يكتب الخلود للغتها وثقافتها بعد زوال سلطانها السياسي. ذلك لأن الفتح العربي الإسلامي حرّر شعوب الوطن العربي من احتلال الفرس والبيزنطيين والرومان، المتميزين منها قومياً ومضطهدين قطاعات واسعة منها دينياً، بينما تجمعها بالعرب قرابة سلالية ولغوية. وبالتفاعل الإيجابي بين الطرفين شكّلوا أمة عربية تمتلك التنوع ضمن إطار الوحدة، متميزة قومياً من بقية الأمم التي اعتنقت الإسلام. وبالانفتاح غير المحدود على تراث شعوب المنطقة والثقافات الإغريقية والفارسية والهندية، وبإسهام مبدعين مختلفي الأصول والأديان والثقافات، تبلورت الثقافة العربية الإسلامية المعبرة عن الانتماء القومي ما بين المحيط والخليج^(٤).

(١) عوني فرسخ، الظروف الإقليمية في الوطن العربي (بيروت: اتحاد الكتاب والصحافيين الفلسطينيين، ١٩٧٤)، ص ٣٢ - ٥٠.

(٢) القرآن الكريم، «سورة الشورى»، الآية ٣٨.

(٣) محمد شحرور، الدولة والمجتمع (دمشق: الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٦)، ص ١٤٩ - ١٦٢.

(٤) حول عوامل التبلور القومي العربي، انظر: عوني فرسخ، الأقليات في التاريخ العربي (منذ الجاهلية وإلى اليوم) (بيروت: لندن: رياض الريس للكتب والنشر، ١٩٩٤)، ص ٣٥ - ٥٠.

التي أدت إلى نبذ العلمانية وإلى بروز الأصولية الإسلامية، متجاهلاً سقوط الأساطير الصهيونية أمام المقاومة اللبنانية بقيادة حزب الله في صيف عام ٢٠٠٦، ما يحض مقولة الإخفاقات، فضلاً عن تجاهل دور القوى الاستعمارية، وبالذات الأمريكية منها، في إبراز الجماعات رافعة الشعارات الإسلامية وتوالي استغلالها في مواجهة القوى القومية والتقدمية.

٩ - أطلق د. قمر على الصفحات (١٨٦ - ٢١٧) جملة أحكام على عبد الناصر وتجربته، وحولها لاحظ:

أ - لقد أجهض النظام الليبرالي في مصر بإعلان الأحكام العرفية في أعقاب حريق القاهرة في ٢٦/١/١٩٥٢ وحل البرلمان وتعطيل الدستور وملء السجون بالمعتقلين، بينما كان تنظيم «الضباط الأحرار» أقرب إلى جبهة وطنية، فيما تضمن بيانهم الأول ما تلتقي عليه أدبيات الوطنيين والاشتراكيين والإخوان والشيوعيين، بحيث «إن التحالف الذي تعذر تحقيقه في الشارع السياسي حينذاك تحقق بعمق في تنظيم الضباط الأحرار»^(٧).

ب - غداة الثورة، رأى عبد الناصر إجراء الانتخابات النيابية بعد ستة شهور، فيما رأى البغدادي أنه لا يمكن أن يوكل لغير الثورة تحقيق أهداف الضباط الأحرار. وعند الاقتراع تعادلت الأصوات، فرجح نجيب اتجاه البغدادي. ولأن عبد الناصر كان

٦ - يقدم د. قمر (ص ١٠٥) نقداً موضوعياً لمعالجة الكتاب الأوروبيين ثنائية الأثرية - الأقلية في التاريخ والواقع العربي، موضعاً حمل المشرفين على أطروحات الدكتوراه طلابهم على اختيار موضوعات تتناول تحليل التمايز والاختلاف على حساب مظاهر التشابه. ويقرر (ص ١١٦) أنه بذلك يغدو من العسير رؤية عوامل الوحدة المحرك الأساسي للتاريخ العربي.

٧ - لم يشر د. قمر إلى النقد غير الموضوعي الذي تعرضت له الكنائس الشرقية والمسيحيين الشرقيين، كما بالنسبة إلى الكنيسة القبطية التي اعتبرها المبشر شالرز واطسون، أول رئيس للجامعة الأمريكية في القاهرة، «شكلاً منحطاً للمسيحية»^(٥). وفي إبراز ذلك بيان أن تعصب الإرساليات التبشيرية، ورفضها التعددية الطائفية، ونقدها غير الموضوعي، لم يقتصر على الإسلام والمسلمين، وإنما شمل العرب جميعهم. ولهذا أهميته في إيضاح أنه ليس كل المسيحيين سواء، كما يذهب غالبية منتسبي الجماعات إسلامية الشعارات، في تناقض مع التوجيه القرآني: ﴿ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله أناء الليل وهم يسجدون﴾^(٦).

٨ - يقول (ص ١٥٤): «إن إخفاقات المجتمع العربي في مواجهة التحدي الإسرائيلي ومستلزمات الحداثة، والاستقلال الاقتصادي وتحقيق الوحدة، شكّلت العوامل

(٥) وليم سليمان، «تيارات الفكر المسيحي في الواقع المصري»، في: غالي شكري [وآخرون]، المسألة الطائفية في مصر، تقديم خالد محيي الدين (بيروت: دار الطليعة، ١٩٨٠)، ص ١٦٥.

(٦) القرآن الكريم، «سورة آل عمران»، الآية ١١٣.

(٧) عادل حسين في: ثورة ٢٣ يوليو: قضايا الحاضر وتحديات المستقبل (ندوة) (القاهرة: دار المستقبل العربي، ١٩٨٧)، ص ٨٥٥.

القائد الفعلي أخذ برأيه بمطالبة الأحزاب بتطهير ذاتها^(٨).

ج - في تقويم أزمة آذار/مارس ١٩٥٤ يقرر د. سيف الدولة أن الليبراليين اختاروا العودة إلى الليبرالية، واختار الثوريون الثورة. وكان كلاهما ديمقراطياً: الأولون بالمفهوم الليبرالي، والآخرين بالمفهوم الشعبي. الأولون انحازوا إلى القلة الممتازة الحاضرة، والآخرين إلى الأغلبية المسحوقة الغائبة. أما على مستوى واقع مصر عند قيام الثورة، فإن الأولين لم يكونوا ديمقراطيين بأي معنى، وكان الثوار، وحدهم، هم الديمقراطيون^(٩).

د - بدأ عبد الناصر ليبرالياً، إلا أن تجربته مع الأحزاب والإخوان المسلمين وتجّمع الليبراليين، والتأييد الجماهيري الكاسح له زعيماً قائداً، وما تفرضه معارك التحرّر الوطني، كلّ ذلك متفاعلاً جعله يعتمد «الديمقراطية الاجتماعية» في دستور ١٩٥٦ الذي قيل في تقويمه: «بكلّ المقاييس كان دستور ١٩٥٦ أكثر ديمقراطية من كلّ دستور سابق، لأنه أضاف إلى ما سبق ولم ينتقص شيئاً مما كان للشعب من قبل»^(١٠).

هـ - لم يقع الانفصال بثورة شعبية، وإنما بانقلاب عسكري دبرته المخابرات الأمريكية بتمويل عربي وقبول سوفياتي تبلّغه سفير الجمهورية العربية في موسكو^(١١). ولحرص عبد الناصر على

الأمن القومي العربي أثر عدم التدخل. لكنه ردّ بدعم ثورة اليمن، بحيث هُزم فيها التحالف الأمريكي - العربي الرجعي، بعجزه عن إجهادها. أما عبد الناصر فقد اعتبرته الصحافة البريطانية العربي الوحيد بين أبرز مئة شخصية عالمية في القرن العشرين. ومن يكون هذا تقويم أعدائه له صعب اعتباره «رجل الهزيمة».

و - كانت نكسة ١٩٦٧ إحدى نكسات حركات التحرر الوطني، بدءاً بإسقاط سوكارنو سنة ١٩٦٥. وبانتفاضة الجماهير العربية ليلة ٩ حزيران/يونيو رافضة استقالة عبد الناصر فشل المسعى الأمريكي، الأمر الذي لم يحدث مع بقية حركات التحرر الوطني، في العالم الثالث، التي انتكست، إذ إن عبد الناصر، وقد تعرّزت قدرته بالدعم الجماهيري، طهر الجيش وأعاد بناءه، وأسقط دولة المخابرات، وباشّر حرب الاستنزاف، الحرب الأولى التي خسرتها إسرائيل، فضلاً عن أنّه حتّى رحيل عبد الناصر ظلت الأنظمة العربية ملتزمة بلقاءات الخرطوم الثلاث، مما يفنّد الادعاء بأن قبول مبادرة روجرز مؤشّر لقبول عبد الناصر للهزيمة.

ز - كانت الردّة عن النهج القومي العربي لعبد الناصر نتاج تفاعل جدلي في ما بين مطامع «الطبقة الجديدة»، وتوظيف الإمبريالية الأمريكية كلاً من الثروة

(٨) عبد اللطيف البغدادي، مذكرات عبد اللطيف البغدادي، ٢ ج (القاهرة: المكتب المصري الحديث، [١٩٧٧])، ص ٧٠ - ٧١.

(٩) عصمت سيف الدولة، الأحزاب ومشكلة الديمقراطية في مصر (بيروت: دار المسيرة، [١٩٧٠])، ص ٧٠ - ٧١.

(١٠) عصمت سيف الدولة، هل كان عبد الناصر ديكتاتوراً (بيروت: دار المسيرة، ١٩٧٧)، ص ١٩٧.

(١١) هذا ما ذكره السفير مراد غالب في أثناء ندوة في القاهرة في شباط/فبراير ١٩٩٨، بمناسبة الذكرى الأربعين للوحدة.

ي - لا يتفق القول بأن عبد الناصر كان منتبهاً إلى الغرب، مع صيرورته أحد أقطاب عدم الانحياز، وقائد الأمة العربية لتحقيق الوحدة والحرية والاشتراكية، ووضع حدّاً لاستغلال الرأسمالية العالمية للوطن العربي، موقعاً وموارد وأسواقاً وقدرات بشرية.

ك - لم تجسّد الناصرية نقطة تجمّع لقوى اليمين، إذ في أوج الصراع مع الشيوعيين والاتحاد السوفياتي سنة ١٩٥٩ كان عبد الناصر مشتبكاً مع الإدارة الأمريكية. ويومها كان التناقض مع الإمبريالية الأمريكية هو التناقض الرئيسي في المشرق العربي، فيما عبّر المزاودون على النهج الناصري عن «مرض الطفولة اليساري».

١٠ - يقرّر (ص ٢٩٥) أن الأقطار النفطية أصبحت أسيرة عملية إنتاج النفط بما يتفق ومصالح الدول الصناعية. ويحمّل المسؤولية التاريخية عن ذلك، على ما اعتبره «قوة الغرب وأنانيته»، وليس للنظام الرأسمالي القائم على استغلال الشعوب ونهب ثرواتها بما في ذلك الشعوب الأوروبية والأمريكية.

١١ - يذكر (ص ٣٥٣) أن الرئيس كارتير في رسالته لبيغن في كامب ديفيد يكرّس الخرافة الصهيونية بعدم وجود شعب فلسطيني قادر على التعبير الجماعي عن إرادة سياسية مستقلة. وعليه، شبّه اتفاقيات

النفطية وحركات الإسلام السياسي ضدّ الحركة القومية، فضلاً عن بروز «الإقليمية الجديدة» في مشرق الوطن العربي ومغربه. والذين ينسبون الرّدّة إلى افتقاد النظرية والتنظيم عليهم مراجعة مقولاتهم بعد سقوط الاتحاد السوفياتي، ولم يحل دون انهيار المعسكر الاشتراكي امتلاك أنظمتها النظرية الماركسية والأحزاب والمنظمات الشيوعية.

ح - غير صحيح الادعاء (ص ١٩٩) بأنه لم يقيّض للناصرية البقاء خارج بعض الأحزاب اللبنانية، إذ ليس من قطر عربي إلا وفيه منظمات وشخصيات ناصرية، فضلاً عن أنّ المؤتمر القومي العربي، والمؤتمر القومي - الإسلامي، ومؤتمر الأحزاب العربية، تتبنى الأهداف القومية التي قاد عبد الناصر جماهير شعبه وأمتة لتحقيقها.

ط - غير صحيح القول (ص ٢٠٠) إن عبد الناصر في موقفه من الأمة والدين كان علمانياً، بمعنى أنّه لم يكن مسلماً عميق الإيمان، إذ تميّز بإدراك واع لحقائق الإسلام القائم على مبدأ ﴿لا إكراه في الدين﴾^(١٢)، ولا عرف بـ «أبوية» تصدر «قرارات الحرمان» و«صكوك الغفران»، ولا كان لعلمائه سلطة دنيوية. وكانت الدولة في الإسلام مدنية^(١٣). ولما كانت الدولة العلمانية لا تأخذ شرعيتها من رجال الدين، وإنّما من الناس، فالدولة في الإسلام علمانية حتماً^(١٤).

(١٢) القرآن الكريم، «سورة البقرة»، الآية ٢٥٦.

(١٣) تقرير «مركز البحوث الإسلامية في الأزهر». ما يقرره محمد عمارة، الإسلام والسلطة الدينية (القاهرة: دار الثقافة الجديدة، ١٩٧٧)، ص ٢٦ - ٨٨.

(١٤) محمد شحرور، نحو أصول جديدة للفقه الإسلامي (دمشق: الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٠)، ص ٨١ - ٨٢ و١٩٦.

الجميل يفاوض سورية لتمديد ولايته. ويوضح أنه باتفاق أمريكي - سوفياتي - فرنسي، مؤيد من السعودية جرى اتفاق الطائف، وانتخب رئيس مؤيد لسورية.

١٥ - يذكر (ص ٤٤٥) أن الرئيس صدام حسين اقترح في ١٢/٨/١٩٩١ ربط انسحابه من الكويت بانسحاب إسرائيل من الأراضي العربية المحتلة سنة ١٩٦٧، وبانسحاب سورية من لبنان، وصياغة ترتيبات للكويت تأخذ في الاعتبار الحقوق التاريخية للعراق، وبخيار الشعب الكويتي، وانسحاب القوات الأمريكية والقوات الأخرى من العربية السعودية واستبدالها بقوات عربية تحدّد جنسيتها باتفاق السعودية والعراق، وتعليق عام لجميع قرارات العقوبات ضدّ العراق. غير أن الإدارة الأمريكية لم تقم لمقترحه أي اعتبار. وألاحظ أن الرئيس صدام دفع حياته ونظامه لرفضه الاعتراف بإسرائيل؟ وعليه، اعتبرته شهيداً غالبية الشعوب العربية والإسلامية.

١٦ - يبيّن (ص ٤٦٧ - ٤٧٤) أنّه لتفادي إجماع الدول العربية على اعتبار منظمة التحرير الفلسطينية هي المتحدث الوحيد باسم الشعب العربي الفلسطيني، حصر وزير الخارجية الأمريكي محادثاته عشية مؤتمر مدريد مع أكاديميين ومهنيين من الضفة والقطاع. ويقرر أن «عملية السلام» تراوح في المكان منذ مؤتمر مدريد. وألاحظ أنّه ليس من استعمار استيطاني عنصري انتهى بالمفاوضات والتنازلات المتبادلة.

١٧ - يذكر (ص ٥٠٣ و ٥٠٤ و ٥٠٧) أن اتفاق أوسلو لم ينصّ على انسحاب القوات الإسرائيلية من الأراضي المحتلة، وإنما على

كامب ديفيد بوعد بلفور في إهدار الانتماء الوطني والحقوق السياسية لشعب فلسطين. وألاحظ أن د. قرم لم يأت على الغاية المستهدفة من اتفاقية كامب ديفيد والمتمثلة بإخراج مصر من الصراع المفروض على الأمة العربية، وبالتالي إفقاد مصر دورها القومي الذي مارسه عبر القرون.

١٢ - يذكر (ص ٣٧٦) أن مشروع فيليب حبيب سنة ١٩٨٢ لم يشر إلى احتلال إسرائيل لثلي الأراضي اللبنانية. وبدأ صمت الدول العربية بمثابة موافقة ضمنية على الجراحة الإسرائيلية التي شتّتت مقاتلي وكوادر منظمة التحرير الفلسطينية. ويقرر (ص ٣٧٨) أن مجازر صبرا وشاتيلا، التي اقترفتها المليشيات اليمينية اللبنانية الخاضعة للسيطرة الإسرائيلية، لم تحرّك ساكناً في الأقطار العربية. وألاحظ أنّه بانطلاق انتفاضة ١٩٨٧، غدت الأرض المحتلة مسرح الصراع الأوّل، محدثة نقلة نوعية جعلت الإدارة الأمريكية تستشيط غضباً ضدّ الانتفاضة، والأنظمة العربية تنظر إليها بقلق، كما يقرر د. قرم (ص ٤٠٣).

١٣ - يقرّر (ص ٣٩٦) على الرغم من مسؤولية إسرائيل المباشرة عن المجازر وأعمال التهجير القسري التي ارتكبت بحق المسيحيين في الشرق والجنوب اللبناني، استمرت المليشيات المسيحية على علاقات وثيقة مع الجيش الإسرائيلي، وكان لها على الدوام موطن قدم في العواصم الغربية.

١٤ - يذكر (ص ٤٠٨) أنّه في خريف ١٩٨٨ أوفدت الإدارة الأمريكية ريتشارد مورفي، مرتين إلى لبنان، وأنّه في أيلول/سبتمبر ١٩٨٨ أُنذر المتحفّظين من النواب لكي يقترحوا لمصلحة مرشح سورية، فيما راح

ومتدنية الحجم، إذ بلغ الناتج المحلي العربي ٦٥٦ مليار دولار عام ٢٠٠٦، فيما كان ناتج إيطاليا ١٠٨٩ ملياراً. وقد ارتفع عدد الأميين العرب ليبلغ عام ٢٠٠١ نحو ٦٠ مليوناً، ما يعادل ٣٩,٢ بالمئة من الأعمار بين ١٥ - ٦٤ سنة، فيما أدت عمليات التعديل البنيوي، تحت رقابة صندوق النقد الدولي، إلى تردّي أوضاع الفئات الشعبية، يضاف إلى ذلك مشكلة الخلل السكاني في منطقة الخليج.

٢١ - عالـج (ص ٦٠٠ - ٦٢١)
التوظيف السياسي للدين بقدر كبير من الموضوعية. لكن قوله (ص ٦٠٤) إنَّ الإسلام تفادى طريقة التفكير التوراتية بتأثير الفكر اليوناني المسيحي غير دقيق، وإنّما لأنَّ الإسلام قام على مبدأ ﴿لا إكراه في الدين﴾، وللمكانة التي احتلها العقل في القرآن الكريم والفكر الإسلامي، ولإقرار تعدّد المذاهب والاجتهادات. كما أنّه مطلوب مراجعة ما قاله (ص ٦١٢)، عن «القمع الدائم للمراجع الشيعية في النجف وكربلاء»، واستخدام مصطلح «الأقلية» بالنسبة إلى الأقباط في مصر، لأنهم على مدى تاريخ مصر منذ الفتح العربي الإسلامي شكلوا جزءاً لا يتجزأ من النسيج الوطني، وأسهموا فاعلين في سائر الأنشطة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، ولم يعانون عزلة اختيارية أو انعزالاً جبرياً. وكمثال حيّ اختيار جورج إسحاق منسقاً لحركة «كفاية»، وبين اللجنة المؤسسة عدد من نشطاء الفكر والعمل الإسلامي.

٢٢ - ألاحظ على ما ورد بعنوان «الدينامية الإسرائيلية المعقّدة ونهضة اليهودية» (ص ٦٣١ - ٦٧٥) ما يلي:

أ - القول (ص ٦٣٤): «إن الدعم الذي توافر لدولة إسرائيل كان لمُدّة طويلة نتيجة

إعادة انتشارها خارج المناطق المأهولة بالسكان، فيما لإسرائيل مسؤولية الدفاع عن التهديدات الخارجية والأمن الكلي للإسرائيليين، وضمان الأمن العام. ويقرر (ص ٥٠٩) أن «اتفاقات أوسلو ليست سوى نسخة شاحبة، كتبت بلغة قانونية كثيرة الضبابية، عمّا تضمنته عن فلسطين اتفاقات كامب ديفيد الموقعة عام ١٩٧٩ التي كانت قد رفضتها المنظمة في حينه باحتقار».

١٨ - يذكر (ص ٥٣٣) أن قوات التحالف، بعد عدوان ١٩٩١ على العراق، طوّرت منطقة الحكم الذاتي الكردي، ووسعتها لتشمل ٩٤٣٦ كلم^٢، وشملتها بحمايتها. ولأنَّ الفصائل الكردية مشكلة على أساس قبلي، ومعتمدة على الدعم الخارجي الأمريكي والسوري والإيراني، بدت كأحجار الشطرنج وتوالت النزاعات المسلحة في ما بينها.

١٩ - يوضح (ص ٥٤٩ - ٥٥٦) الدور السياسي - الاقتصادي لرفيق الحريري في ما اعتبره «سقوط لبنان»، وأنَّ انتخابات ١٩٩٦ جرت وفق المشيئة السورية لصالح الحريري وجنـبـلاط. وفي انتخابات ٢٠٠٠ حاز الحريري الأغلبية، معتمداً على إمكاناته المالية والإعلامية والدعم السوري، فعاد إلى السلطة. وعادت معه الصفقات والرشى والهيمنة السورية.

٢٠ - يوضح (ص ٥٩٢ - ٦٠٠) اختصاص الجيوش العربية بنسبة عالية من الميزانية، ومنح كبار الضباط فرص الاستفادة المادية، مما عطل احتمالات التمرد، وأنَّ رجال الأعمال الجدد ليسوا من المجازفين بالصناعة أو المبدعين، وثرواتهم مشكوك بمصادرها، وبالتالي بقيت الاقتصاديات العربية ريعية ومهمّشة وتابعة

العربي. والأكثر واقعية العمل الجاد لإقامة جبهات وطنية عربية، ملتزمة بالأهداف الستة التي حدّدها المؤتمر القومي العربي: الوحدة العربية، والاستقلال الوطني، والديمقراطية، والتنمية المستدامة، والعدالة الاجتماعية، والتجذّد الحضاري.

٢٤ - تعقياً على العدوان الصهيوني على لبنان صيف ٢٠٠٦ يتساءل د. قرقم (ص ٧١٢): «هل سيكون الفشل العسكري الصهيوني المريع أمام الإرادة الصلبة والتنظيم العالي الكفاءة للمقاومة، بطابعها اللبناني والعربي والإسلامي، بداية تقهقر الكيان الصهيوني، كما يراه بعض المحللين الغربيين والعرب على السواء؟ وسبق أن أجبت عن تساؤله بدراسة بعنوان: «مستجدات ومتغيّرات الصراع العربي - الصهيوني» بيّنت فيها أن الزمن منذ حرب ١٩٦٧ لم يسر في صالح مشروع الاستعمار الاستيطاني العنصري الصهيوني، بل دليل أنّ الصراع بات يجري داخل فلسطين المحتلة، فيما تراجع الطموح الصهيوني للمطالبة بدولة يهودية محمية بجدار الفصل العنصري، فضلاً عن أن الشعب العربي الفلسطيني هو اليوم أكثر خطورة على حاضر ومستقبل المشروع الصهيوني من أي يوم مضى منذ صدور وعد بلفور.

وختاماً، ألاحظ أن د. قرقم أرفق بكتابه المميز ملحقات توثيقية ومرجعية غاية في الأهمية، ولا تتحقق الفائدة الكاملة من هذا السفر دون مراجعتها بالاهتمام الذي تستحقه ■

عذاب ضمير المجتمعات الأوروبية»، فيما الدافع لإقامة مشروع الاستعمار الاستيطاني العنصري الصهيوني استعماري بالدرجة الأولى، بدءاً من تكليف نائب القنصل البريطاني في القدس سنة ١٨٣٨، «اعتبار حماية اليهود من مهام الدولة»، وأن يزوّد الخارجية البريطانية بمعلومات دقيقة عن حالة السكان اليهود في فلسطين^(١٥). وما كان قرار التقسيم ليصدر سنة ١٩٤٧ لولا التقاء العسكريين: الرأسمالي والشيوعي على التصويت لصالحه. وعلى الرغم من احتدام الحرب الباردة بينهما، كانت الطائرات الأمريكية تنقل السلاح التشيكي والضباط من يهود المعسكر الشرقي لدعم الهاغاناه في حرب ١٩٤٧/١٩٤٨.

ب - من الأمثلة الصارخة على العنصرية الصهيونية يورد د. قرقم (ص ٦٥٠) ما نصه: «ينبغي خلق حالة تغدو فيها حياة العربي لا تساوي أكثر من حياة فأر».

ج - يورد (ص ٦٧٢) تفنيد د. تانيا راينهارت، أستاذة الألسنية في جامعتي أوترخت الألمانية وتل أبيب، أكذوبة «التنازلات» التي ادّعى إيهود باراك أنّه قدمها إلى ياسر عرفات في قمة كامب ديفيد عام ٢٠٠٠.

٢٢ - الإجراءات الاقتصادية المقترحة (ص ٦٨٥ - ٦٨٩) لإخراج المشرق العربي من مأزقه لا يمكن تحقيقها ما دامت القوى المؤثرة في صناعة القرارات العربية مرتبطة ارتباطاً تبعية بالقوى الدولية الحريصة على استمرار واقع التجزئة والتخلف والتبعية

(١٥) جوزيف حجار، أوروبا ومصير المشرق العربي (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٦)، ص ٢٣١.